المسلمون السود

تاريخهم ونظمهم وعقائدهم

مورو بيرغر

من اولى الحركات التي سبقت حركة المسلمين السود وركزت على التربة وافريقيا ، حركة « الاتحاد العالمي لتحسين الزنوج » ، التي اسسها ماركوس غارفي في ١٩١٤ . وقد نجح هذا الزعيم الزنجي الذي رأى النور في جمايكا في السيطرة على مخيلة جماهير الزنوج في اجزاء كثيرة من المعمورة وكان ذا اثر فعال في امريكا . وما زال عدد كبير من الامور التي نادى بها يستهوي الجماعات المسلمة القومية اليوم. وكان غارفي علمانياً كلية في مزاجه، وهاجم المسيحية لعجزها عن حماية الزنوج ضد ما يتعرضون له من انتهاب واغارات . ومع انه تلقى معلوماته عن تاريخ افريقيا وحضارتها على يد مسلم مصري ، الا انه لم يشدد على المواضيع الاسلامية مطلقاً . بل ظل علمانياً ، وان يكن قد كتب مقالات عديدة في جريدته « عالم الزنوج » عن التراث الزنجي الحضاري العظيم ، الذي ضم اليه مصر القديمة وعرب القرون الوسطى . وحذر غارفي الزنوج من مجتمع البيض الحديث ، تماماً كما يفعل المسلمون السود اليوم ؛ قال : « ان لم يأخذ الزنجي حذره فانه سيبتلع كل ما في المدنية الحديثة من سموم وسيموت نتيجة لذلك » . وقال ايضاً : « ان عالم البيض حاول على الدوام ان يسرق منا تاريخنا وان يصمه بالعار . لكن كل دارس للتاريخ ذا نظرة محايدة يعرف ان الزنوج كانوا يوماً ما يحكمون العالم » .

في الوقت الذي كانت حركة غارفي العلمانية على اشدها فيه كانت هناك حركات دينية قومية كثيرة تنادي بالاسلام وتجتذب زنوج امريكا . فقد نجحت حركة الأحمدية ، التي انبثقت أصلاً عن الهند في القرن التاسع عشر ، في كسب بعض اهالي شيكاغو اليها ، وهي المدينة التي كان يلجأ اليها غالبية الزنوج من الولايات الجنوبية .

غير ان اول جماعة مسلمة تبشيرية مهمة في هذا القرن كانت « معبد العلوم العربية في امريكا » الذي اسسه قبيل الحرب الاولى زنجي من ولاية كارولينا الشمالية اسمه تيموثي درو . وقد وصف نفسه بأن النبي محمد قد تجسد فيه، واقام معبده في نيوارك في ١٩١٣ ، ووصل ذروة نفوذه بعد ذلك بعشر سنين في شيكاغو، حيث كانت الظروف تبدو مواتية لمثل هذه الحركات اكثر منها في سواها . وغيّر اسمه الى الشريف درو علي ، وعلّم

الزنوج بأنهم ليسوا سود اللون ولكنهم الاحفاد السمر للعرب وللمؤابيين القدماء . واصدر قرآناً ألفه من اجزاء من القرآن الحقيقي ومن التوراة ومن اقوال ماركوس غارفي ومن الحكايات التي تروى عن المسيح ومن آرائه هو . واتخذت هذه الطائفة يوم الجمعة يوماً المقدس ، وكانت تتلو الصلاة ثلاث مرات كل يوم باتجاه الشرق . وقد احتفظ المسلمون السود بكثير من عادات هذه الطائفة مع تعديلات طفيفة . وغيروا اسماءهم واضافوا اليها اسماء عربية ، ولبس كثير منهم الطرابيش واطلقوا لحاهم . وحرم الشريف درو علي السينما والرقص والتجميل وتزيين الشعر والمشروبات والتدخين . وحاول جماعته انشاء مدرسة واقاموا مؤسسات تجارية صغيرة خاصة بهم .

وشدد الشريف ، كما فعل زعماء المسلمين السود من بعده ، على الناحية الصحية . وفي سنوات العشرينات اتسعت الحركة بسرعة والى حد كبير بحيث عجز الشريف درو علي ، الذي كان يسير الثقافة وقليل الاختبار في التنظيم ، عن ادارة جميع المعابد في مختلف المدن . وفي ١٩٢٩ حاول احد كبار رجاله احتلال مكتبه فقتل ، واعتقل درو . وبعد اطلاق سراحه بأسابيع قليلة مات دون ان تعرف اسباب موته . فانشقت حركته الى حركات متعددة، ولم يبق لها اثر الا في معابد صغيرة في ولايتي كونكتيكت وكنتكي .

كان من جملة اتباع درو رجل اسمه و. د. فرد. ومع ان ايليا محمد اخبرني انه لم تكن لفرد أية علاقة قط بدرو، الا انه اقام طائفته الخاصة «امة الاسلام» او «معبد الاسلام» – التي انبثقت عنها بشكل مباشر حركة « المسلمين السود » الحالية. يقول ايليا محمد: «سألته من انت ، وما اسمك الحقيقي ؟ فأجاب : انا الذي كان العالم يترقب مجيئه طوال الألفي سنة الماضية . وسألته ثانية : ما اسمك ؟ فقال : اسمي المهدي ، انا الله ، وقد جئت لأهديكم الى الصراط المستقيم » .

هناك من يزعمون ان فرد من مواليد قريش، قبيلة الرسول العربي ذاته. والواقع انه كان بائعاً متجولاً ينقل بضائعه من بيت لبيت في دترويت في اوائل العقد الرابع. وكان يدخل بيوت الزنوج فيروي لهم حكايات عن الامصار القاصية التي جاءوا منها اصلاً ، ويحذرهم من تناول المأكولات التي اعتادوا ان يقتاتوا بها ، ويعلمهم القرآن . ثم اقام « جامعة للاسلام » ليحارب « خداع » البيض للزنوج وليعلمهم المواضيع العامة وبصورة خاصة الرياضيات التي هي سلاحهم ضد خداع البيض .

ولما اختفى في ١٩٣٤ بدون اثر انشقت حركته وتولى ايليا محمد (الذي كان اسمه

الأصلي او « اسمه في العبودية » ايليا بول) رئاسة طائفة من الحركة هي الطائفة التي ظلت امينـــة لتعاليم الحركة (بأن الزنجي هو الانسان الاصلي ، وان البيض ابالسة ، وان على المسلمين ان يغيروا « اسماءهم في العبودية » وان يتجنبوا أكل بعض الأطعمـــة) . وكانت هذه السنوات سنوات ركود وهبوط اقتصادي وسنوات عراك وتغيرات اجتماعية هائلة في صفوف الزنوج الذين ترك ملايين منهم الجنوب والتربة وتوجهوا شمالاً الى المدن . خلال هذه السنوات ظلت « امة الاسلام » طائفة صغيرة تقوم على ثلاثة اسس : دين جديـــد ، وقومية افريقية سوداء، واحتجاج على الاستغلال . وقد نالت مزيداً من الشهرة في سنوات الخمسينات نظراً لنمو حركة المساواة في صفوف الزنوج ولبراعة زعماء الحركة وللحس البارع الذي كان لهم بالعلاقات العامة .

يطرح المسلمون السود على الزنوج مشكلة عميقة هي مشكلة هويتهم ومكانتهم في امريكا وفي العالم . وهذا صحيح بالنسبة للزنوج الشديدي الثقافة كما هو صحيح لأقلهم علمـــاً ، ولأصحاب المصارف كما هو للعوزين ، بالرغم من ان الذين هجروا المسيحية الى الاسلام هم في اكثر الأحيان من الطبقة الأقل دخلاً والاصغر عمراً والأيسر علماً وثقافة . وهم يهتمون بالطقوس والاحتفالات ، شأنهم بذلك شأن كافة الأديان . وتبـــدأ اجتماعاتهم العلنية في العادة بلعب قطع موسيقية افريقية مسجلة، تعقبها احياناً فرقة زنجية تلعب الجاز الحديث . ولا يلبس المسلمون الملتزمون ملابس رسميـــة ، وان كانوا يلبسون ملابس مميزة تفرقهم عن سواهم . وتدار الاجتماعات بهدوء وباقتدار ، ويبدأ كل متحدث حديثه قائلاً بالعربيـــة (ولكن بلهجة امريكية صميمة) « السلام عليكم » ويرد المستمعون عليه التحية « وعليكم السلام » . وهؤلاء المتحدثون هم في العادة شيوخ المساجد ، لكن كثيراً ما تعطى الكلمة لسواهم من زعماء الزنوج . وتدور أحاديثهم على المواضيع المعهودة : استغـلال الزنوج ، وفراغ صبرهم ، والحاجة للانفصال ، وشرور البيض وطيبـــة السود الطبيعية . وتختتم الاجتماعات بوقوف الجمهور لتقبل البركة التي تعطى من على المنبر، ويباركهم الشيخ بمزيج من آيات الفاتحة وغيرهـــا من الصلوات ، وبالتأكيد بأن ايليا محمد هو مبعوث الله .

« نحن افضل جميع البشر »

يمكن ان نفهم المسلمين السود خير فهم اذا نظرنا اليهم كرد فعل للصورة التقليدية التي

في اذهان البيض عن الزنوج . فقد كان الزنجي الامريكي لمئات خلت من السنين يتلى على سمعه بأنه جزء من طبقة دنيا من البشرية ، وكان مقامه في المجتمع الامريكي يبدو تثبيتاً لهذا الرأي . لذا نرى المسلمين يقولون للبيض: « انكم لا تقبلون بنا كمساوين لكم، وتفرقون بيننا وبينكم . حسناً اذاً ، فلنفترق – لكن فلنفترق كليةً » . وهم يعكسون كل ما يقول به انصار التفوق من البيض : فهم يرفضون التفرقة كمرحلة املاهـا تفوق البيض ، وهم يرفضون الاندماج لأنهم يعتبرونه مستحيلاً وفي الوقت ذاته غير مرغوب فيه خشية ان يتلوث السود نتيجة لامتزاجهم بالبيض . فالله في زعمهم اسود ، والانسان الاصلي اسود ، واعظم اسهامات المدنية تمّت على يد السود ، والاسود هو الطاهر والنقي . اما الابيض فهو على نقيض ذلك قذر ومدنس ، والبيض جنس مطعَّم لا اصيل ، وهم نزقون شديدو الميل للحروب .

ان فكرتي التفرقة ورذالة البيض هاتين مترابطتان متشابكتان . وثمة فكرة ثالثة تماشيهما ، هي انه ينبغي على الزنوج ان يكونوا مثيقظين وحذرين من خداع البيض ، كما ان ثمة شعوراً تشترك فيه معظم فئات الزنوج اليوم ، بأن عليهم ان يتسلموا هم زمام صراعهم . قال ايليا محمد لأتباعه : « لقد أُجبر الشعب الاسود في امريكا طوال سنين عديدة على الشعور بأنه لعنة سماوية ما ... يجب الا تظنوا انكم كذلك بعد اليوم . نحن، امة الأرض السوداء ، مالكو الارض رقم واحد ، وافضل جميع البشر . انكم اكثر الناس قوة وجمالاً وحكمة » .

ويبدو ان هذه التعاليم تمكن افراد « امة الاسلام » من قبول هويتهم كزنوج وايضاً من قبول مكانتهم في المجتمع الامريكي . ولما كانت المساواة الاصيلة عن طريق الاندماج في كل مرفق من مرافق الحياة تظهر متعذرة التحقيق ، فان المسلمين يرفضون الفكرة من اساسها ويجدونها غير مرغوب فيها . وبدلا من ذلك فانهم يرون ان مهمتهم ، كما اخبرني ايليا محمد، هي تهيئة زنوج امريكا الشمالية للانفصال والحكم الذاتي، وذلك عن طريق تعليمهم النظافة واعالة انفسهم والشعور بالحب والاحترام لاخوانهم السود ، لا لأعدائهم البيض.

وتفرق « امة الاسلام » (كحركة تشدد على الخلاص عن طريق اعتناق الدين) تفرقة جذرية بين الذين يقبلون الايمان وبين المؤهلين لقبوله لكنهم يقاومونه حتى الآن. فالمسلمون السود هم « اكثر الناس تقوى وجمالا » ، لكن « المسمّين زنوجاً » الذين مـا زالوا خارج الحظيرة هم قوم يأكلهم كرههم لأنفسهم وهم في الواقع على قدر كبير من الانحطاط .

قال لي مالكولم اكس ذات مرة: « ان معظم الاشياء السيئة التي يقولها البيض عن الزنوج ليست اقوالا اعتادوا وصمهم بها : انها اشياء حقيقية » . وقال ايليا محمد موبخاً جمهوراً كبيراً من مستمعيه : « كفوا عن استجداء البيض العناية بكم . انتم كسالى ، لا تريدون ان تفعلوا شيئاً لأنفسكم . لن انحي باللائمة دائماً على البيض : سأنحي بها عليكم احياناً » . وقال مرة مؤنباً الذين لم يروا النور بعد : « ان رب العبيد يحقر ذاته ان جعل الشعب المستعبَد الذي لا يملك شيئاً مساوياً له » .

ويهتم المسلمون اهتماماً كبيراً بامتلاك « شيء » ما . فلكي يقضوا على الضعف والاعتماد على الغير ، الناتجين عن عدم امتلاك شيء ، يدعون الى توظيف الاموال التي يقتنيها الزنوج في المخازن والمصانع بغية تنمية ثروتهم .

ومع ان حركة المسلمين السود تجتذب في ظن البعض الفقراء وغير المتدربين بدرجة رئيسية ، الا انها تتخذ مثلاً أعلى لها نمطاً هو نمط الطبقة الوسطى. ومن المفارقة ان التعليم البروتستانتي القائل بالتوفير والجهد اصبح شائعاً ومعمولا به لدى الزنوج الذين هجروا المسيحية البروتستانتية. غير ان برنامج ايليا محمد المسمى « برنامج من اثنتي عشرة نقطة لخلاص وانقاذ الزنوج الامريكيين » ذو صبغة كلفينية امريكية محضة . وكثير من الصور في منشورات « امة الاسلام » تشدد على موضوع الوقار الذي تتسم به الطبقة الوسطى .

مظاهر عنف وتشوّق لامتلاك أراضي

غير ان هذا التمسك بقيم البورجوازية الحضرية لا يقلل من تشوق هذه الفئات القروية الى امتلاك الاراضي . فطلبها قطعة من الارض هو تعبير عن رغبتها في سبيل للعيش وفي الحصول على رقعة من الارض تمتلكها في الوقت نفسه . وهو ما تطالب به بأعلى صوتها في كل اجتماع من اجتماعاتها وفي كل منشور من منشوراتها .

قال ايليا محمد في خطاب رئيسي له قبل عدد من السنين: « اننا لا نطالب بأرض كانت أصلاً للشعب الاوربي . اننا نطالب بالارض التي كانت أصلاً لنا . سنحصل على مكان في هذا الكوكب نستطيع ان نسميه ملكاً لنا ... لن نقعد في انتظار موسى ما ليجيء ويخبرنا انه سيقودنا الى ارض موعد . ان التربة هي ارض موعدنا وسنأخذ جزءاً منها » .

لم يقل المسلمون قط أي شيء بالتدقيق عن موضع هذه الارض الجغرافي أو عن طريقة تملكهم لها ، وغالباً ما يحيل الناطقون بلسانهم السائل الى ايليا محمد ، أو يؤكدون ان الله سينزل الدمار بالبيض وسيكافىء السود بطريقته هو . هذا الغموض والتكرار بأن المسلمين « سيأخذون » الارض او « سيستولون عليها » – مضاف اليه تأسيسهم جماعة عسكرية غير مسلحة تسمى « ثمرة الاسلام » – قاد الى اتهامهم بأنهم يؤمنون بالعنف طريقاً لتحقيق غاياتهم .

يبدو للمراقب ان المسلمين يهتمون بالعنف في وقت تشدد فيه كثير من الحركات الزنجية الاخرى على طرق الاحتجاج السلمية . ويعمد خطباؤهم الى استثارة جماهير مستمعيهم الغفيرة بالتنبؤ عن المصائب التي توشك ان تحل بحضارة البيض . وهم غالباً ما ينبهون المستمعين الى ان لكل انسان حق الدفاع عن نفسه ، والى انهم يرفضون طرق الاعتراض السلمية . قال مالكولم اكس في خطاب علني : « ان ديننا لا يعلمنا ان ندير الوجه الآخر. ان الاسلام يعلمنا ان ندافع عن انفسنا » . وقال مرة في اذاعة تلفزيونية : « ان امريكا ذاتها ضد المقاومة السلبية . عندما هاجم اليابانيون بيرل هاربور لم تلجأ امريكا الى المقاومة السلبية » .

ويعنى المسلمون السود في الوقت ذاته عناية كبيرة بأن يظهروا ان اهدافهم سلمية وانهم لا يحملون سلاحاً . وهم يفتشون جميع الذين يحضرون اجتماعاتهم الدينية وسواها . وعندما يقترب احد خطبائهم في حديثه من موضوع العنف، فانه يضيف عادة ان الاسلام ينادي بالسلام .

اذاً لماذا انشأوا « ثمرة الاسلام » ؟ تتألف هذه الجماعة من اكثر اعضاء « امة الاسلام » التزاماً عاطفياً وكفاءة جسمانية ، ويقول المشرفون عليها ان القصد من البرنامج التدريبي هو خلق عقول وأجساد عامرة بالصحة بين المؤمنين ، لكن هؤلاء الشبان الأقوياء يبدو ان لهم مهمات عديدة اخرى . فهم يحرسون زعماء الحركة ويحمونهم من البيض الغاضبين ومن الفئات المنافسة لهم على السواء ؛ وهم يضفون على الطقوس الدينية جواً من الانضباطية ؛ وهم يبعثون فى الطوائف الزنجية الاخرى الهيبة لما للمسلمين السود من قوة جسيمة جاهزة؛ وبامكانهم ان يشكلوا يوماً ما في المستقبل قوة بوليس داخلية لهذه الجماعات، فيملأون الفراغ الذي يشغر نتيجة رغبة الشرطة في عدد من المدن بترك الاحياء الزنجية حرة تتمادى في رذائلها وجرائمها ما دامت لا تمتد وتنطلق الى احياء البيض ؛ واخيراً فان

« ثمرة الاسلام » تظهر ما يمكن تحقيقه عن طريق الايمان والنظافة وتجنب المأكولات الرديئة التي يحبها « المسمّون زنوجاً ».

ومع ان المسلمين السود يظهرون مستعدين للعنف الا انهم قلما استعملوه ، بل انهم حينما استعملوه كان ذلك يحدث عندما كانوا يهاجمون او عندما كانوا يعتقدون ان حقوقهم الشرعية قد اغتصبت . واعتقد ان رغبتهم العميقة باظهار ضبط النفس واطاعة القوانين وتسفيه سائر الأوصاف التي اعتاد البيض وصف الزنوج بها ، يجعل احتمال لجوئهم عن قصد وتعمد الى العنف قليلاً جداً .

ويرفض المسلمون السود اعطاء أية معلومات عن عدد افراد حركتهم ، ويكتفون بالقول انهم كثيرون وانهم في ازدياد مطرد . وهم لا يسندون اي حزب سياسي أو أي مرشح ، وموقفهم تجاه الشرائع هو موقف اللامبالاة لأنهم يعتقدون انها جميعها عديمة الجدوى . ولا يعقدون أية مفاوضات مع جاليات البيض أو مع السلطات الحكومية بخصوص القضاء على التفرقة العنصرية ومشاكل السكنى والمدارس والوظائف وما شاكل. وتعتمد قوتهم في الواقع على مقدرتهم تجنب أي اختبار علني لها .

لكن قياس القوة لا اهمية له في حركة « كأمة الاسلام » . فمثل هذه الحركة الدينية يجب ان يحكم عليها بناء على ما تفعله لأفرادها المختلفين وعلى المثال الذي تضعه ويحتذيه الآخرون . وتشير جميع الدلائل ان للمسلمين تأثيراً كبيراً على الملتزمين منهم التزاماً عميقا. وافراد الحركة يتمسكون بالقوانين ويحترمون انفسهم ويعملون بجدّ ويتصفون بالاستقامة الخلقية . وكثيرون منهم وصلوا هذه الحال على الرغم من ظروف غير مؤاتية ، وبعضهم على الرغم من سوابق اجرامية ومن صرفهم وقتاً في السجون (والواقع ان كثيراً من الزنوج احتكوا احتكاكاً مباشراً بتعاليم ايليا محمد لأول مرة وهم في السجون) . ومن الصعب درس المثال الذي يضعونه في حياتهم الخاصة وفي تكرسهم « لأمة الاسلام » ، لكن الذين يشاهدون هذا المثال يعرفون قدره . بل ان تأثيرهم هذا على الآخرين هو ابرز مميزاتهم . ومع انهم لا يشاركون في الكفاح في سبيل الحقوق المدنية الا انهم يؤثرون فيه بطرق اخرى : فهم يثيرون حماساً تشعر به المنظمات الزنجية الاخرى ؛ زد على ذلك ان الاهتمام البالغ الذي توليه الصحافة والراديو والتلفزيون للمسلمين السود يشجع زعماء المنظمات المطالبة بالحقوق المدنية على اتخاذ موقف اكثر شدة وتصلباً ؛ واللهجة « المتطرفة » التي يستعملها المسلمون تجعل البيض اكثر استعداداً للتفاوض مع الفئات « المعتدلة » ، وهذا الاستعداد

يشجع بدوره ممثلي الزنوج على المطالبة بأكثر .

من الصعب تقدير الاثر المباشر « لأمة الاسلام » على زنوج امريكا . فمن حيث قوتهم العددية جرت عادة المراقبين ان يقدروها بما بين مائة الف ومائتي الف ، لكني اشك في ان عدد الافراد الملتزمين كان في اي وقت من الاوقات يزيد عن الخمسين الفاً ، مع ان هناك عدداً اكبر دخل هذه الحركة وخرج منها ولعله ما زال قريباً منها . لكن اذا كان الزنوج لا يسارعون للالتحاق بالمسلمين فانهم مع هذا يحترمونهم؛ والزنوج الذين لا يلتحقون بالمسلمين لا يلتحقون بمن يوجهون اليهم الانتقادات .

ومع هذا كله فان غالبية الزنوج يبدون لا مبالين « بأمة الاسلام » كدين، ولا يجدون فيها حلاً حقيقياً لمشاكلهم . فانما هم الزنوج الذين يشعرون انه ليس ثمة حل يرتجى من المفاوضات والتشريعات والسبل « المعتدلة » التي تلجأ اليها الجماعات المطالبة بالحقوق المدنية – انما هم هؤلاء الذين يستهويهم المسلمون اكثر من سواهم. فمع ان المسلمين لا يقدمون أملاً بحلول بالمعنى المتعارف عليه (بالدمج ، او على الاقل بالقضاء على التفرقة) فانهم يقدمون حلاً للافراد الذين يجدون في هذا الدين والموقف طريقاً لتكييف انفسهم مع مجتمع يعمل على اقصائهم عنه . كما ان قرارهم بتجنب كل اتصال بعالم البيض يزيح عن كاهل الزنوج العبء الثقيل ، عبء محاولة انتزاع حقوق مساوية من اناس ليسوا على استعداد لأن يمنحوهم اياها .

كما ان هذه الحركة تعطي كثيراً من الزنوج سبيلاً لبث شعورهم نحو مجتمع البيض المعادي ولكبح جماحه في الوقت ذاته . فالطقوس التي يستعملونها ، والهجومات اللفظية العنيفة على البيض ، وعرضهم لقوتهم ، كل هذه تهبهم شعوراً بالقوة والمغامرة يمتص منهم النزعات التخريبية . فهم يبقون دائماً داخل نطاق الاحياء الزنجية ، فيما عدا ممثليهم القليلين الذين يرسلونهم احياناً للخارج . ومن هذه الأماكن المألوفة عليهم يقذفون عالم البيض البعيد بسبابهم واهاناتهم وتهديداتهم المبهمة ، وهم محاطون بمستمعيهم السود ، المحاطين « بثمرة الاسلام » ، المحاطين بدورهم بأفراد الشرطة البيض . لكن انصياع الحركة للقانون واصرارها على ان يبقى الزنوج في احيائهم يبعثان شعوراً بالامن وبالهدوء .

ورغم رفض المسلمين لمجتمع البيض في امريكا ، يظل جهادهم جهاداً غير سياسي، ويتخذ طابعاً دينياً . بل ان الهدف الذي يصبون اليه باقامة دولة منفصلة للزنوج، رغم انه يبدو هدفاً سياسياً ، يأخذ صبغة دينية . فعندما سئل مالكولم اكس في مقابلة تلفزيونية عن

هذا الهدف « السياسي » أجاب : « اننا نراه كما رآه موسى امراً دينيـــاً ان نفصل بين العبيد وارباب العبيد . ان المسيحيين واليهود على السواء يرون الآن في موسى زعيماً دينياً لا سياسيا » .

الله الاول الاسود وخلفاؤه ورسوله

ورغم قول ايليا محمد بالاسلام ، فانه من الجلي انه يعتبر نفسه كموسى اكثر منه كالنبي العربي . فالاسلام الذي يبشر به هو للزنوج الامريكيين لا لسواهم . وتعـــاليمه الدينية استمدها بصورة شخصية ، كما قال لي ، من و . د . فرد — اي من الله .

هذه التعاليم لا يجري ذكرها قط للجمهور بشكل منطقي مرتب ، مع ان المقربين منه يُعطَون بعض المنشورات والمخطوطات التي تحتويها. وكثير من هذه التعـاليم ، كما تعبر عنها مقالات ايليا محمد وكما عبر عنها هو لي عندما قابلته في بيته في شيكاغو في الصيف الماضي ، محيرة ويصعب توضيحها لغير المؤمنين .

قال لي ان « أمة الاسلام » تؤمن بعدد من الآلهة خلف واحدهم الآخر بعد الله الاول الاسود ، ذلك الكائن الاسمى الذي خلق الكون قبل ٧٦ تريليون سنة . وقد جاء بعـده خلفاء له ، لكن ليس بينهم من يساويه مرتبة . وكان و . د . فرد آخر الآلهة ، وايليـا محمد هو رسول الله . وقد قامت بين ايليا محمد وبين فرد صلة وثيقة في دترويت من ١٩٣٠ الى ١٩٣٤ وتلقن الاسلام عنه . ومجيء فرد يحقق نبوءتين : النبوءة المسيحيـة عن مجيء المسيح الثاني ، ونبوءة القرآن عن مجيء المهدي . قال ايليا محمد : « لقد كنت في حضرة الله اكثر من ثلاث سنين ، وقد تلقيت ما اعلّمه مباشرة من فمه » . وايضاً : « اعتقد اني اول انسان وكل اليه الامور وجهُ الله شخصياً . ان كنت كاذباً فاني اعطيـك عشرة آلاف دولار » . هذه العقيدة تنـــاقض الاسلام التراثي ، الذي يؤمن بإله واحد لكافة الازمان وبرسول واحد لله هو النبي محمد .

وقال لي ايليا محمد ان القمر انشقّ عن الارض قبل ٦٦ تريليون سنة ، ثم جـاء الجنس الاسود من الرجـال والنساء الذين كانوا البشر الاصليين والاولين ، وكان دينهم الاسلام وأسسوا مدينة مكة المقدسة . وكان من بينهم اربعة وعشرون عالماً حكيمـاً على قسط

كبير من المعرفة والبأس . وقبل خمسة وخمسين الف سنة اختلف احد هؤلاء العلمـــاء مع اقرانه وأنشأ قبيلة خاصة من السود كانت قوية وصلبـة ، افتتحت فيما بعد ادغال آسيا الشرقية وأتبّت بين سكانها الهدوء . من هذه القبيلة ينحدر الزنوج في الولايات المتحدة ، وهم « أمة الاسلام الضـــائعة الموجودة في براري امريكا الشمالية » . وحدث قبل حوالي ٦٦٠٠ سنة ان كان الله شخصاً اسمه يعقوب ، وكان يعرف كيف ينشىء الاقوام بطريقـة علمية . ولد على بعد عشرين ميلاً عن مكة ، في زمن كان فيه سبعون بالمائة من النـــاس راضين وثلاثون بالمائة غير راضين . ولد يعقوب من الثلاثين بالمائـة غير الراضين ، « وولد لكي يبعث الاضطراب ويقضي على السلم ويرتكب القتل » . نال قسطاً كبيراً من الثقافة ، « وكان له رأس اكبر حجماً من العادي بكثير ، ولما بلغ الثامنة عشرة كان قد أنهى جميع كليات بلده وجامعاتها وكان يدور في شوارع مكة يبشر ويهدي الناس » .

أقلق يعقوب السلطات ، فسجنته هو وأتبـــاعه ونفته الى جزيرة باتموس – وهي الجزيرة التي يعتقد ان يوحنا تلقى فيها الرؤيا التي تشكل السفر الاخير في العهد الجديد : وقال لي ايليا محمد انه ربما كان يعقوب ويوحنا الشخص ذاته . وقرر يعقوب عدو الله ان يخلق جنساً جديداً من البشر يكون ابيض اللون رغم انه كان هو اسود . لكنه لم يكن بوسعه ان يخلق بيضاً من السود مباشرة بل على مراحـل متعددة . فخلق من السود جنساً اسمر اول الأمر ، واستغرق هذا مائتي سنة ، لم يبق لديه من بعدها مادة سوداء لاستعمالها. فقضى مائتي سنة اخرى خلق فيها جنساً احمر من الاسمر ، وبعدها لم تبق لديه مـــادة سمراء . فصرف مائتي سنة اخرى خلق فيها الجنس الاصفر من الاحمر ، ولم يبق له بعدها مادة حمراء . واخيراً وبعد مائتي سنة اخرى (أي قبل حوالي ٦٠٠٠ سنة) خلق جنس البيض من الصفر . وهذا الجنس كان يختلف اختلافاً كلياً عن سواه لأنه كان الوحيد الذي لم تكن فيه مادة بيضاء مطلقاً والذي لم يكن مسلماً بطبيعته .

وقال ايليا محمد ان البيض كانوا سلالة من الشياطين ، وكانوا متوحشين وعراة ، لا يشعرون بخجل ، غزيري الشعر ، يشبهون الحيوانات ويمشون على الاربعة ويعيشون في الاشجار . وبعد ألفي سنة أقام الله موسى لكي يمدّن سلالة البيض هذه ولكي يجعلهم يحكمون العالم كما أرادهم يعقوب ان يفعلوا . فعلمهم موسى ان يأكلوا السمك يوم الجمعة بدل اللحم ، وهي عادة ما زال كثير من البيض يمارسونها حتى اليوم. لكن موسى نفسه وجد مهمته عسيرة. وقدر لسلالة البيض هـذه ان تحكم مدة ٦٠٠٠ سنة – حتى الوقت الحـــاضر . ومن ثم

« فسينبعث من أمة السود الأصلية واحد ستكون حكمته ومعرفته وقوته غير متناهية ». وهذا « الله الأعظم والأقوى » ، الذي ظهر على الارض بشكل و. د. فرد ، سيدمر عالم يعقوب بأسره وسيعيد الى السود مكانتهم الشرعية كحكام للكون . وكان الله قد شاء ان يجلب بعض السود كعبيد الى امريكا الشمالية بقصد ان يفهموا ويعرفوا انفسهم فهماً ومعرفة أفضل . وكان عليهم ان يظلوا عبيداً مدة ٤٠٠ سنة تنتهي في ١٩٥٥ . وهذه النبوة تقترب الآن من التحقيق تبعاً لتوثب السود في جميع انحاء العالم ولقضاء الله على مدنية البيض بتدمير ذاتها بذاتها. وعندما يحكم السود الارض فانها ستصبح هي السماء بدلاً من الجحيم — لأن الله « قد اوضح ما الذي يكوّن السماء على الارض : الحرية والعدالة والمساواة ، والمال والبيوت الصالحة والصداقة في كل مرافق الحياة » .

هذا المزيج من الاسلام التراثي والمسيحية واليهودية يقصد منه تشجيع السود على الشعور بالكبرياء لسوادهم . وهو يشبه لحد كبير تعاليم الطائفتين الاسماعيلية والدرزية ، وخاصة من هذه النواحي : السرية ، وافشاء التعاليم للمقربين فقط وعلى مراحل ، والايمان بتعاقب تجسدات الله ، ودورات التاريخ ، والتشديد البالغ على مجيء المخلص . كما ان المسلمين السود يشاركون الدروز والاسماعيليين في اهتمامهم بالعلوم الغامضة الخفية وبسحر الارقام . صحيح ان كلاً من هذه النواحي توجد في ديانات اخرى ، لكن العناصر التي اختار المسلمون السود قبولها توحي بأن و. د. فرد ، او الرجل الذي لقنه ذلك ، كان هو نفسه درزياً او اسماعيلياً. فعندما كان يجمع اتباعاً له في دترويت في اوائل الثلاثينات كان فيها مئات من الدروز جاؤوها من سوريا . لكن مهما كان اصل فرد من حيث الدين او القومية ، فان طابعه العنصري له تفسير ممتع . فقد اخبرني ايليا محمد ان فرد لم يكن اسود لكنه كان نصف اسود ونصف ابيض : وذلك ليتمكن من ان يقبل به السود في امريكا وان يتزعمهم ، وفي الوقت ذاته ليتمكن من التنقل بين البيض دون ان يكتشفوه، بقصد ان يتفهم اعداء السود (وقد اتخذ كلمة فرد العربية اسماً له دلالة على فرادته وبالتالي على ألوهته) .

موقفهم من الأديان الاخرى

ان ايليا محمد بوصفه مسلماً لا يرفض العهد القديم والعهد الجديد رفضاً تاماً ، بل يعتبر

التوراة مجموعة من الأفكار والقصص والاساطير والامثال والافكار الاخلاقية ، بعضها يمكن استثماره وبعضها لا يمكن ؛ غير انه لا يتردد عن انتقاد التوراة على اساس انها غير معقولة (وهذا مدعاة للاستغراب في حاله هو) . اما العهد الجديد ، الذي نشأ عليه معظم المسلمين السود ، فانهم يعرفونه احسن مما يعرفون العهد القديم او القرآن . ومع ان معظم اشاراتهم هي اليه ، فان هذا لا يمنعهم من رفض المسيحية رفضاً قاطعاً . قال ايليا محمد في خطاب رئيسي : « خذوا كل هذه التعاليم المسيحية التي أعطونا اياها والقوها في برميلهم للزبالة » .

اما موقف « امة الاسلام » من اليهودية فيبدو غامضاً احياناً ومحتملاً اكثر من تفسير ، لكنه عدائي في العادة . وايليا محمد ، كما قلت ، اشبه بموسى منه بالمسيح او بالنبي محمد . وهو يشدد على المهمة التي انيطت به لأن يقود المسمّين زنوج امريكا من « براري امريكا الشمالية » كما فعل موسى في القديم .

لكن في اليهود ثلاث نقائص: اولاها انهم بيض ؛ والثانية ان عدداً كبيراً منهم هم من الملاكين واصحاب الدكاكين في الاحياء الزنجية الفقيرة، وعلى هذا فان المسلمين السود غالباً ما يتخذونهم هدفاً لهجماتهم؛ وثالثاً لما بين العرب والمسلمين وبين اليهود في فلسطين من عداء.

ويعلن المسلمون السود احياناً عن تضامنهم سياسياً ودينياً مع العالم الاسلامي في آسيا وشمالي افريقيا . وهم حساسون للنقد الذي كثيراً ما يوجه اليهم من ان المسلمين الحقيقيين في الاماكن الاخرى لا يعترفون بهم ، لا هم ولا الجماعات المسلمة « الشرعية » التي هاجرت الى امريكا واحتفظت بالتعاليم والطقوس الدينية التراثية . وقد قام ايليا محمد في ١٩٥٩ برحلة الى افريقيا والشرق الادنى مع عدد من اتباعه وقال انه ادى فريضة الحج الى مكة، لكن هناك من يسخرون من زعمه هذا .

وقد تبادل ايليا محمد الرسائل مع عدد من رؤساء الدول بما فيها غانا ومصر . وقام بعض المسلمين من رعايا دول من الشرق الادنى، بصورة فردية، بوظيفة معلمين او مستشارين غير رسميين لدى « امة الاسلام » ، وادعى البعض ان الحركة مرتبطة من بعض النواحي بحكومات بلد اسلامي او اكثر . لكن ان صح انه كانت هناك مثل هذه العلاقات فانها لم تكن جدية او ثابتة – ومن الواضح ان ايليا محمد يدير حركته لزنوج امريكا فحسب ، ولا يسمح لأحد آخر في امريكا او في سواها بأن يتدخل في ادارة حركته . وعندما قيل مؤخراً ان شخصية اسلامية في السعودية العربية قد انتقدت تعاليمه ردّ قائلاً : « ليس ثمة

مسلم في السعودية العربية له سلطة على منعي من نشر رسالتي التي انتدبني اليها الله ، كما لم يكن لهم من سلطة على منع نوح وابراهيم وموسى والمسيح ومحمد » .

ويسعى المسلمون الى تدريس اللغة العربية والتعاليم الاسلامية في مدارسهم الابتدائية والثانوية ، لكنهم لم يحققوا في ذلك نجاحاً ظاهراً . وكثير من زعمائهم واسعو الاطلاع ، لانهم يحاولون على الدوام العثور على ادلة علمية وتاريخية تثبت مزاعمهم بخصوص عظمة السود وإثم البيض .

استخدامهم العلم والاسطورة – والعلاقات العامة

وقد أتقن المسلمون السود فن العلاقات العامة وعرض صورة معينة عن الحركة في اذهان الزنوج والبيض . فهم يشيرون على الدوام الى ايليا محمد كشخص لطيف وديع في كلامه، والى « ثمرة الاسلام » كفئة مهذبة رياضية نظامية ، والى النساء المسلمات بأنهن جميلات وعفيفات ومقتدرات ، والى اجتماعاتهم بأنها حسنة الترتيب ومسالمة . وقد استعان المسلمون بخدمات شركة زنجية تعنى بالعلاقات العامة . ويطيب لهم ان يشددوا على الاهتمام الذي يبديه الشرطة وسواهم من الموظفين بزعماء المسلمين .

ولا يتردد المسلمون عن استعمال علوم البيض لفائدتهم هم ولفائدة الزنوج . وقد لام ايليا محمد الزنوج مرة لأنهم يلجأون الى البيض سنداً لآرائهم . قال: « أينبغي انتقتبسوا دائماً رجلاً ابيض للأشياء البارعة او الحكيمة التي تقولونها ؟ متى سمعتم عن رجل ابيض اقتبس رجلاً اسود في نظرته للحياة ؟ ابدأوا من الآن باقتباس رجل من بينكم انتم » . لكن ذلك العدد نفسه من مجلة « محمد يتكلم » الذي اورد هذه الاسطر اقتبس ثلاث مجلات امريكية « بيضاء » !

هذا الاحترام للكلمة المطبوعة هو رد فعل لحرمان الزنوج من التعليم مدى قرون ، وللفكرة الشائعة بأنهم غير قادرين على التعلم . ويقول ايليا محمد انه قبل استعباد السود كانوا قد « أتقنوا الرياضيات والفلك وعلوم الحياة الجوهرية الاخرى » . وهو يعتقد ان الرياضيات علم أساسي ، وقال لي احد اتباعه وهو استاذ للرياضيات في احدى كليات الزنوج : « ان الرياضيات والاسلام متساويان . انهما الشيء ذاته . انهما متعادلان » . وقال

ان البيض وخاصة في الولايات الجنوبية يقولون للزنوج ان العلوم ليست في متناول فهمهم؛ قال : «ان الرياضيات هي المفتاح الذي يفتح به العالم، وهذا هو السبب الذي جعل البيض يحاولون ان يبعدوه عن المسمّين زنوجاً ».

وعندما يذكر ايليا محمد لأتباعه ماذا يأكلون وكيف يأكلون ، فان في بعض ذلك شبهاً بما كان يقوله الشريف درو علي . فهو يؤنبهم : « كفوا عن الشره في الأكل الذي يؤول بكم الى حتوفكم وعن تناولكم ثلاث وجبات او اربعاً كل يوم . كلوا وجبة واحدة في اليوم ، وكلوا احسن الاطعمة » . ويحذرهم ايضاً من تناول الطعام من العلب والصفائح. وتحذرهم جريدتهم من ان « عقوبات ستفرض على المسلمين الذين يتبين انهم أثقل وزناً مما يجب » .

ويقوم اتباع ايليا محمد ، كجزء من ولادتهم الجديدة ، بهجر الاسماء الانكلوسكسونية القديمة التي أطلقها أرباب العبيد الامريكيون على أسلافهم ويتخذون لهم أسماء جديدة . والرسول نفسه، كما أخبرني ، كان اسمه في الاصل ايليا بول. وهناك عادة شائعة، وهي ان يستعيض الملتحق بهم عن « اسمه في العبودية » باسم بسيط للعائلة هو اكس — وعندما يحدث ان يوجد عدد من الاشخاص لهم الاسم الاول ذاته فانهم يضعون أرقاماً متسلسلة قبل اسم العائلة اكس : فهنالك مثلاً جيمز ٢ اكس وجيمز ٣ اكس الخ . وقد خاطب مالكولم اكس مستمعيه مرة بقوله : « لماذا علينا نحن الافريقيين ان نحمل الاسماء التي أعطانا اياها ارباب العبيد ؟ هل رأيتم قط اوربياً ابيض يسمي نفسه كازافوبو ؟ »

ليس بالامر العسير الوصول الى تعليل لاتخاذ بعض الزنوج الاسلام ديناً او سبيلاً للتعبير عن حنقهم على البيض او على المسيحية . فالدين غالباً ما يختلط بالاحتجاج الاجتماعي ، والأديان المختلفة تستهوي بشكل خاص المحرومين واللامنتمين . والدين ، وخاصة في امريكا ، وسيلة مناسبة تتخذها وتحتمي بها الجماعات التي تنشد تبديلات جذرية .

وقد كانت في الاسلام امور كثيرة تجتذب الزنوج، المتدينين بشكل عميق رغم نفورهم من المسيحية . فالاسلام في نظر زنوج امريكا لا علاقة له بالرق ، وارباب العبيد والمدافعون المتدينون عنه في امريكا كانوا دائماً من المسيحيين . كما ان الاسلام ظل قروناً يحارب المسيحية ، التي تعتبر دين البيض، وتغلب عليها لفترات طويلة من الزمن في آسيا وافريقيا بل وفي اوربا . والاعتقاد الشائع هو ان العرب والمسلمين محاربون اشداء بواسل نشروا دينهم بحد السيف . وهناك عنصر آخر حبب الاسلام اليهم ، هو تمجيده للرجل كرأس

للعائلة . فحياة الزنوج في امريكا ، قبل العبودية وبعدهـا ، كانت تحقر الذكر ؛ فكان لا يقوى على ان يحقق على التمام الدور الذي اتخذه لنفسه كمعيل للعائلة وحامٍ لنسائه واولاده. وكان يسهل على الرجال البيض الوصول الى النساء الزنجيات ، في حـين ان السلطات الحكومية والفردية كانت منظمة بشكل يمنع الرجال الزنوج من الاتصال بالنساء البيض . فكانت النساء الزنجيات عن طريق جاذبيتهن الجنسية اقرب دائماً الى مصدر القوة ، اي الرجل الأبيض ؛ كما ان الاشغال التي كانت في ميسور النساء جعلتهن في وضع افضل من وضع ازواجهن للحصول على مهن اقل وضاعة . امـا الاسلام فانه لم يشدّد فحسب على التزامات الذكر القاسية بل ايضاً على امتيازاته الاكثر ومقامه الاعلى . ولهذا كان من المفارقة ان ظروف الحياة الامريكية جعلت بعض الزنوج يشعرون ان ديناً غريباً يمكنهم من الاقتراب اكثر من طريقة الحياة العائلية كما تمارسها الطبقة المتوسطة في امريكا .

« التفرقة ؟ لنفترق كليةً والى الابد »

هل تكون حصيلة هذا كله ديناً ما ، ديناً يشابه ما تعارف العالم على تسميته بالاسلام؟ ان الاسلام ليس فيه سلطة مركزية لها الحق في قبول من يطلبون الانتماء اليه او رفضهم . فكل من يتقبل المعتقدات الاسلامية ويقوم ببعض الطقوس المرسومة له الحق في ان يسمي نفسه مسلماً . وليس مهماً من ناحية عملية ان نقرر هل يعتبر اتباع ايليا محمد مسلمـين حقيقيين ام لا – فهنالك بعض الطوائف الاسلامية التي لا تنظر بعين الرضى الى سواهـا ولا تعتبرهـا من الدين نفسه ، كما انه بالنسبة للكثير من مسلمي آسيا والشرق الادنى لا يزال الاسلام المرعي في القبائل الافريقية التي اعتنقته قبل قرون يبدو امراً غريباً. لكنهم جميعاً مسلمون . وأخطر تهمة توجه للمسلمين السود هي انهم يقصرون دعوتهم عـلى فئة لا سواها: فالاسلام التراثي لا يستثني عنصراً او لوناً او امة – بل ان هذا هو احد الاسباب التي جذبت ايليا محمد واتباعه اليه . لكن هذا التناقض لا يقلقهم ، وهم يصرون عـلى اعتبار اسلامهم هم وقفاً على الامريكيين « المسمّين زنوجاً ».

وكثيراً ما يطرح السؤال : هل يؤمن فعلاً ايليا محمد او مالكولم اكس بنظام الكون والتاريخ الطبيعي الذي يقول به الرسول ؟ ولا أجد مبرراً للشك في ذلك . فهـل يؤمن

المسيحيون واليهود والمسلمون بنظام الكون الذي تقول به التوراة والقرآن ؟ وقد يقال ان ايليا محمد « مريض » ان كان يظن انه على اتصال بالله : لكن هذا بالضبط ما كان يقوله غير المؤمنين عن كل زعيم ديني في الماضي . وصحيح ان كثيراً مما يقوله غير مفهوم ، لكن كثيراً مما في التوراة والقرآن هو كذلك ؛ ولعل التفسيرات التي من شأن العقول الجبارة ان تعطيها له خلال آلاف السنين ستفعل له ما فعلته للأديان الاخرى .

ان مستقبل المسلمين السود مرتبط ارتباطاً وثيقاً بمقدرتهم الدينيـــة على الاجتذاب ومرتبط ايضاً وبالطبع بواقع حياة الزنوج . وانا لا اعتقد ان بامكانهم ان ينموا ويتسعوا كثيراً : لأنه ينبغي عليهم ان يحتفظوا بصبغتهم الدينية كي يظلوا متميزين – وانما هي هذه الصبغة الدينية ذاتها التي تصد عنهم الناس في هذا العصر العلماني . ولعل المسلمين سيجابهون أزمة خطيرة عندما يحين الوقت للعثور على خلف لايليـــا محمد . فكيف سيحدد وضع الزعيم الجديد ؟ وهل ستصبح الحركة اكثر نشاطاً سياسياً ؟ وكيف ستتخطى وضعهـــا الحالي ، وضع فئة صغيرة ضيقة شديدة التماسك لمجرد انها تتطلب من افرادها الشيء الكثير ؟

انا افترض بهذا بالطبع ان دين ايليـــا محمد لن يصبح الدين الذي يعتنقه جميع الزنوج الامريكيين . واعتقد ان عصر الحركات الدينية التي تفتح العـالم قد انقضى ، لكني اعتقد ايضاً ان المسلمين السود قد حركوا موجة عقائـــدية من النوع الذي كان في الماضي يغمر العالم بأسره . مثل هذه الافكار كانت تنتشر ، كما فعلت المسيحية والاسلام ذاتهما ، عبر حضارات غريبة عن الحضارة التي نشأت فيها . لكن هناك أمثلة كثيرة على الفشل ، بل ان النجاح كان يتخـلله الفشل . فالمسلمون الذين انبثقوا من الجزيرة العربيـــة فشلوا في اكتساب اليهود لدينهم ، وكذلـــك فشل المسيحيون في اكتساب المسلمين . وان نجحت ديانة ما فهي حركة روحية انعاشية عظيمة تكشف عن مقاصد الله ، لكنها ان فشلت فهي جماعة وملّة تبعث في غير المؤمنين التسلية . ان المسلمين السود يقدمون للزنوج طريقة للتكيف مع مقتضيات حياة صعبة . فعالم البيض يقول لهم انهم لم يبقوا افريقيين ، لكنه يرفض ان يسمح لهم ان يصبحوا امريكيين تماماً . وعالم البيض يستخف بمـــاضي الزنوج وينكر عليهم مستقبـــلاً يفتخرون به . فكان رد المسلمين السود على هذا : « لنفترق ولننفصل كلية ً والى الابد » .

وهذا شيء مفجع في عالم اخذت جميع الاجناس فيه تضحي لا أقل اعتماداً بل اكثر اعتماداً واحدها على الآخر ، سواء كان باعث هذا الاعتماد العداء او كان الصداقة .